

## المدرسة العربية

### 1) الأدب المقارن والتراث العربي:

لقد عرف الأدب العربي - شعرا ونثرا - ظاهرة التأثير والتأثر منذ ظهوره، كما استخدم الأدباء كلمات أجنبية فارسية وإغريقية، وذلك لاختلاط العرب بغيرهم من الشعوب، لكن لم يتطرق المؤرخون القدامى لتبادل النصوص والاستعارات ولا لكيفية انتقالها. غير أن الجاحظ (ت 253هـ-867م) كان قد تحدث في كتاب «البيان والتبيين» عن بلاغة الفرس والهند والروم ويقصد الإغريق، وأشار إلى بعض الخصائص المشتركة بينها وبين بلاغة العرب، لكن مقارنات الجاحظ بين آداب الأمم الأربعة الكبرى في عصره، لم تكن مبنية على منهج بل اعتمدت على أفكار ذاتية أكثر منها موضوعية.

كما قارن الجاحظ بين الشعر الفارسي والشعر الإغريقي والشعر العربي فوجدها تختلف من حيث الإيقاع والقافية، وهذا يعني أن الجاحظ كان على دراية بهذه اللغات، ولم يصلنا أي كتاب قبل عصره تعرض بالدرس لقصائد مختلفة اللغة. لقد استحسّن الجاحظ بلاغة الأمم الكبرى واستهجن البعض الآخر، ولكنه لما قام بهذه المقارنات لم يكن معاديا للثقافات الأجنبية، ولم نلتمس شيئا من الاستعلاء في آرائه.

### 2) الموازنات عند العرب:

لقد عرف الأدب العربي الموازنة منذ أن وجد، كما عرف أيضا المحاكم والأسواق الكلامية منذ العصر الجاهلي، وقد تطورت هذه الموازنات في الأدب العربي وألفت فيها الكتب. ومن أشهرها «الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي الجرجاني (ت 152هـ-769م)، و«الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري» للأمدي (ت 370هـ-981م). فالجرجاني أراد التوسط بين المتنبي وخصومه، وأما الأمدي فقد قصد المفاضلة بين البحتري وأبي تمام، غير أن هذه الموازنات كانت ذات طابع جمالي بحت ولم تتطرق إلى ظاهرة التأثير والتأثر. ولعل أبرز ما أدت إليه هو الحديث عن الأصالة، وهذه الفكرة لم يعرفها النقد الأوربي الحديث إلا في أواخر القرن التاسع عشر، وهو البحث عن سبق إلى الفكرة من الشاعرين حينما يوظفان الأسلوب نفسه أو المعنى نفسه.

غير أن النقاد العرب القدامى اقتصروا في موازناتهم على أدباء اللغة العربية، ولم يتطرقوا إلى ما أخذه الشعراء العرب من اللغات الأخرى كالفارسية والهندية واليونانية، وكان من الشعراء العرب من يجيد الفارسية، ومنهم من درس الفكر اليوناني، ومنهم من اطلع على أدب الهند، بالإضافة إلى الترجمات التي قام بها العرب منذ العهد الأموي.

### 3) بداية الدراسات المقارنة عند العرب:

ظهرت محاولات في منتصف القرن التاسع عشر في العالم العربي، يمكن عدّها من البدايات الأولى للأدب المقارن عند العرب. وكان دعاة التجديد يهدفون من وراء تفتحهم على أوربا تعريف القارئ العربي بأدب الغرب التي بلغت مرحلة متقدمة من التطور، في حين عرف الأدب العربي من المحيط إلى الخليج مرحلة طويلة من الانحطاط. ويمكن اعتبار رواد النهضة العربية هم أصحاب البدايات الأولى للأدب المقارن في العالم العربي، لقد ركزوا على دراسة التشابه والاختلاف بين الأدب العربي والآداب الغربية الحديثة، ولم يتطرقوا إلى دراسة التأثير والتأثر، لأن فضل أدب أمة على أدب أخرى لم يكن من اهتماماتهم، عكس ما ذهب إليه المدرسة الفرنسية عند اشتراطها للصلات التاريخية بين الآداب.

وكان **رفاعة الطهطاوي** و**علي مبارك** و**أديب إسحاق** و**أحمد فارس الشدياق** و**يعقوب صروف** وغيرهم، قد قاموا بمقارنة بعض مظاهر الثقافة العربية بالثقافة الغربية ودرسوا جوانب من التشابه والاختلاف بينهما. وهذه الدراسات التي ظهرت على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعتبر البدايات الأولى للأدب المقارن عند العرب. ويمكن اعتبار **رفاعة رافع الطهطاوي** (ت 1290هـ-1873م) أول من تطرق إلى البحث المقارن بين الثقافات الشرقية والغربية، وكان قد سافر مع البعثة الطلابية إلى فرنسا سنة 1826م، وبعد عودته إلى مصر سنة 1831م، ترجم عدة أعمال فرنسية إلى العربية كما ألف كتابه المشهور «تخليص الإبريز في تلخيص أخبار باريز» وهو مقارنة سطحية بين الثقافتين العربية والإفريقية، وذلك في بداية الثلث الثاني من القرن التاسع عشر.

وفي أواخر القرن التاسع عشر تناول رواد النهضة الفكرية العرب الآداب الغربية بالدراسة ومقارنتها بالتراث العربي، كما اهتموا أيضا بالترجمة والاقتباس من التراث الغربي. ولم يتطرق هؤلاء النهضويون العرب إلى ظاهرة التأثير والتأثر، بل كان هدفهم تعريف القراء ببلاغة الإفرنج والإفادة منها في نهضة الأدب العربي.

### 4) الدراسات المقارنة في بداية القرن العشرين:

ازدهرت حركة الترجمة والاقتباس في أوائل القرن العشرين بعد الانفتاح نحو الغرب، فزاد اهتمام الدارسين العرب بالمقارنة، وظهرت دراسات في هذا الحقل المعرفي الأدبي.

لقد تناول سعيد الخوري الشرتوني التشابه والاختلاف بين البيان العربي والبيان الإفرنجي، دون التطرق إلى التأثير أو التأثير، في مقالة بعنوان «البيان العربي والبيان الإفرنجي» نشرت في مجلة «المقتطف» عام 1902م. وكان يهدف من خلال هذه المقارنة، إظهار محاسن وعيوب البيان العربي والإفرنجي ومعرفة القوي من الضعيف. وأول من تناول ظاهرة التأثير والتأثر إلى جانب التشابه والتوازي بين عدد من النماذج الأدبية المختلفة، هو روجي الخالدي في كتابه «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوجو» الذي صدر لأول مرة عام 1904م، ومن خلال عنوان الكتاب، يكون الخالدي أول من استخدم مصطلح «علم الأدب».

وبهذا، تكون دراسة روجي الخالدي أشمل وأوسع من الاتجاه التاريخي التقليدي الذي اقتصر على المقارنة بين أدبين فقط وحصرها بين التأثير والتأثر.

لقد تناول في كتابه التشابه بين الشعر الإفرنجي والشعر العربي السابق له، كما تناول أثر الشعر الأندلسي في بعض أشكاله ومضامينه في شعر التروبادور (Troubadours) الجنوبيين والتروفير (Trouvères) الشماليين، وتأثر قصص الإفرنج بقصص عربية في العصور الوسطى، معتمدا على الصلات التاريخية بين الآداب في بحثه. وفي عام 1904م، ترجم **سليمان البستاني** «إلياذة» هوميروس (Homère) تطرق في المقدمة إلى حياة هوميروس وشعره والأدب اليوناني والأوربي. كما تناول في المقدمة أيضا، أوجه التشابه والاختلاف بين الأدب العربي والأدب اليوناني، وقارن بين أنواع الشعر عند العرب والإفرنج، كما فرق بين السرقة والتأثر.

أما الأديب **قسطكي الحمصي الحلبي** فقد كتب في مطلع القرن العشرين عدة دراسات في مجال المقارنة بعد اطلاعه على مؤلفات سانت بوف (Sainte Beuve) وتين (Taine) وبلدنسبرجر (Baldensperger) وبرونتيير (Brunetière) وغيرهم من النقاد الفرنسيين الذين كان لهم الفضل في نشأة المدرسة الفرنسية. لقد حاول من خلالها تعريف الأدباء العرب بالاتجاهات النقدية لدى الغرب. وفي كتابه «منهل الوراد في علم الانتقاد» تناول في الجزء الثالث منه تأثر دانتي أليغييري (Dante Alighieri) برسالة الغفران للمعري

أما مصطلح «**الأدب المقارن**»، فقد ظهر لأول مرة عام 1936م، عند **خليل هنداوي** وكذلك **فخري أبو السعود**، في مقالات لهما في مجلة «الرسالة»، وهي ترجمة حرفية عن المصطلح الفرنسي. وكان فخري أبو السعود قد نشر دراسات منذ بداية الثلاثينيات، في مجلة «الرسالة» قارن فيها مظاهر التشابه والاختلاف بين الأدبين العربي والإنكليزي في قضايا القصة والخرافة وغيره. اقتصر في مقالاته على دراسة تشابه النصوص ولم يلتزم بشرط التأثير والتأثر الذي أقرته المدرسة التاريخية والذي انتقده فيما بعد رواد الاتجاه الأمريكي. لقد ظهرت الدراسات العربية المقارنة متزامنة مع المدرسة الفرنسية وقبل ظهور المدارس الأخرى، الأمريكية والسلافية والألمانية؛ وإذا كان الدارسون العرب الأوائل قد اختلفوا مع الاتجاه التاريخي في بعض الجوانب واتفقوا معه في جوانب أخرى، هذا إنما يدل على أن هؤلاء الباحثين، رغم إعجابهم بالاتجاه الفرنسي وانبهارهم بالآداب الغربية الحديثة، إلا أنهم كنفوا دراساتهم حسب حاجاتهم النهضوية وتقاليدهم الأدبية والعقائدية.

## 5) **التأليف المنهجي في الأدب المقارن:**

وفي سنة 1948م صدر كتاب «من الأدب المقارن» لنجيب العقيقي، وهو عبارة عن دراسات في الأدب والنقد لا علاقة لها بالأدب المقارن، وكان المؤلف لم يقرأ كتابا واحدا في الأدب المقارن، رغم أن دراسات عدة في هذا الميدان ظهرت منذ بداية القرن العشرين في مجلات «المقتطف» و«الرسالة»، فكان من الأجدر أن يغير عنوان الكتاب.

وفي عام 1949م ظهر كتاب **عبد الرزاق حميدة** بعنوان «في الأدب المقارن»، الذي قارن فيه بين «رسالة الغفران» للمعري و«الكوميديا الإلهية» لدانتي من الناحية الجمالية دون التطرق إلى الأثر والتأثير بينهما، فكانت الدراسة عبارة عن موازنة.

وفي سنة 1951م أصدر الدكتور **إبراهيم سلامة** كتابا بعنوان «تيارات أدبية بين الشرق والغرب، خطة ودراسة في الأدب المقارن»، تناول بالمقارنة الأدبين العربي والإغريقي في كل الفنون تقريبا دون التطرق إلى الصلات التاريخية بينهما، وهو بذلك لم يتبع طريقة المدرسة الفرنسية في هذا المجال.

وظلت هذه الدراسات سطحية في سنوات الأربعينيات، إلى أن تطور التأليف في الأدب العربي المقارن في سنوات الخمسينيات على يد جماعة من الباحثين العرب الذين درسوا في الجامعات الغربية، فظهرت كتب في ميدان المقارنة الأدبية بفضل ترجمات عدة أعمال من الآداب الغربية إلى العربية.

وفي سنة 1953م أصدر **محمد غنيمي هلال** كتابه **الموسوم «الأدب المقارن»**، ومن خلاله تعرف القارئ العربي على المنهج الفرنسي في الدراسات المقارنة. وظل هذا الكتاب مرجعا في الأدب المقارن لأكثر من عقدين في الجامعات العربية، ثم أصدر كتابا أخرى وكانت في مجملها، عبارة عن تكرار لما جاء في كتابه الأول.

كان محمد غنيمي هلال الذي درس في فرنسا لا يرى في كتبه من الأدب المقارن إلا الاتجاه التاريخي، ولم نر أثرا لجهود الباحثين العرب الذين سبقوه؛ لقد ألقى من دراساته حتى الذين جاء بعدهم بزمّن قصير. فبدلا من أن يساهم في تحديد ملامح الاتجاه العربي في هذا المجال، راح ينقل حرفيا ما ورد في كتب فان تيجم (P. Van Tieghem) وكاريه (J.M. Carré) وجويار (M.F. Guyard) وغيرهم ممن عملوا على ترويج مبادئ الاتجاه التاريخي، وكان في الكثير من الأحيان لا يذكر المصادر الفرنسية التي اعتمد عليها.

ومع ذلك، يرجع الفضل إلى محمد غنيمي هلال في إرساء علم الأدب المقارن النظري عند العرب، ولا يزال الكثير من الباحثين العرب، يعتمدون على كتابه الأول «الأدب المقارن»، فبواسطته تعرف الدارسون العرب على ميادين الأدب المقارن وموضوعاته وأعلامه.

وفي السبعينيات من القرن العشرين، ازدهر البحث في ميدان الأدب المقارن، وظهرت كتب ومقالات عديدة، كما أصبحت أغلب الجامعات العربية تدرّس مادة الأدب المقارن في مرحلة الليسانس والدراسات العليا. ومن أبرز الكتاب في هذه الفترة، حسام الخطيب، وبديع محمد جمعة، وريمون طحان، وإحسان عباس وغيرهم. وما يلاحظ على هذه الفترة، هو تفتح الدارسين على الشرق حيث ظهرت مقارنات بين الآداب العربية والفارسية والتركية.

وخلافا لرواد المدرسة الفرنسية الذين استصغروا الآداب الأخرى وتظاهروا بالاستعلاء، فإن المقارنين العرب من جيل السبعينيات، تميزوا بالتسامح مع الآخر عند تناولهم لهذه الدراسات، إذ أشاروا إلى المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي بموضوعية ومن دون تحرج.

## 6) مرحلة النضج والازدهار:

أما في الثمانينيات، وبعد ظهور اتجاهات أخرى في الأدب المقارن، ظهر جيل جديد من المقارنين العرب تناولوا الدراسات المقارنة الأكاديمية مع مراعاة النسق الأدبي العربي. فبالإضافة إلى الكتب، تخصص بعض طلاب الدراسات العليا في الأدب المقارن وأنجزوا مذكرات وأطاريح في هذا المجال، كان معظمها حول ظاهرة التأثير والتأثر بين الأدب العربي والآداب الأوربية وعلى وجه الخصوص، الصلات الأدبية بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية في العصور الوسطى.

وكان للمجلات العلمية المتخصصة في الآداب العالمية والأجنبية التي ظهرت في المشرق وفي المغرب العربيين الأثر الكبير في اندفاع الطلاب والباحثين نحو هذا الحقل المعرفي الأدبي.

ورغم أن بعض الدراسات لم تلتزم بالمنهج الفرنسي، إلا أن البعض الآخر اختار هذا المنهج، ليس تقليدا، وإنما رأى فيه النموذج الأمثل لرد الاعتبار للأدب العربي الذي تجاهله بعض الدارسين الغربيين وعلى رأسهم رواد المدرسة التاريخية تعصبا للمركزية الأوربية.

وفي الوقت نفسه بدأ المقارنون الفرنسيون يتراجعون عن منهجهم التقليدي، بحجة أنه لم يعد يخدم الأدب المقارن. وفي الحقيقة أنه لم يعد يخدم الأدب الفرنسي والمركزية الأوربية، فالرواد الأوائل عندما أسسوا لهذا المنهج، حددوا دراساتهم ابتداء من عصر النهضة. ولما انتشر الأدب المقارن خارج الحدود الأوربية وظهر الأزمة التي أدت إلى نشأة اتجاهات أخرى، بدأ الباحثون يهتمون بأدب القرون الوسطى والأدب القديم شرقا وغربا.

ومع ذلك، فإن جل الدراسات العربية المقارنة التي صدرت في العقدين الأخيرين من القرن العشرين جاءت تطبيقية بحثية، ولم يتطرق أحد إلى ملامح الاتجاه العربي في الأدب المقارن وفق السياق والثقافة العربية إلا في إشارات عابرة. ورغم ترجمة كتب رواد الاتجاهات الفرنسية والأمريكية والسلافية والألمانية، إلا أن أغلب الباحثين العرب اهتموا كثيرا بالمناهج النقدية الحديثة وتطبيقها على الرواية.

وتعتبر الدراسات التي قام بها رواد حركة الإحياء والتجديد العرب في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، هي أولى لبنات المنهج العربي. ورغم عفويتهم وإعجابهم بالدراسات الغربية والآداب التي ترجموها أو اقتبسوا منها، إلا أنهم انفردوا في بعض المنطلقات التي ليست من منهج الأوربيين، ومن دواعي هذا الاختلاف تمسكهم بالهوية والروح الوطنية.

ومن المقارنين البارزين في الثمانينيات، الدكتور الطاهر أحمد مكي الذي أصدر عدة كتب، والدكتور داود سلوم الذي كتب هو أيضا عدة دراسات في هذا المجال. ومنهم أيضا، الدكتور مناصور الذي أصدر كتابا بعنوان «مدخل إلى الأدب المقارن» تناول فيه خصائص المدرسة الفرنسية والأمريكية في الأدب المقارن، والدكتور عز الدين المناصرة الذي ألف كتابا بعنوان «المثاقفة والنقد المقارن، منظور إشكالي»، كما اشتغل أيضا على الصورائية في الأدب الفلسطيني، وهناك باحثون غيرهم ظهوروا في المشرق والمغرب.

## (7) خصائص الاتجاه العربي في الأدب المقارن:

لقد ركز الرواد العرب الأوائل على دراسة التشابه والاختلاف ولم يتطرقوا إلى دراسة التأثير والتأثر، لأن فضل أدب أمة على أدب أمة أخرى لم يكن من اهتماماتهم، واعتمادهم على دراسة التشابهات والتوازي بين آداب الأمم وعدم تطرقهم إلى ظاهرة التأثير والتأثر، يدل على أنهم قد سبقوا الاتجاه الأمريكي بأكثر من نصف قرن.

ومن إسهاماتهم، توسيع البحث المقارن إلى آداب العصور الوسطى والآداب القديمة، ومنها آداب اليونان والفرس والترك والهند وغيرها. ولم يقتصرُوا في المقارنة على أدبين فقط، بل وسعوا الدراسة إلى آداب عدة. وحتى لا تقع الدراسة ضمن الموازنات يشترط أن تكون الآداب موضوع الدراسة لأمم مختلفة. ولم يكن شرط اللغة أو القومية ضمن اهتماماتهم، فالإتجاه العربي في الأدب المقارن يفرق بين القومية والأمة.

فالمغربي الذي يكتب بالعربية أو الفرنسية، والشامي الذي يكتب بالعربية أو الكردية، والأديب المهجري الذي يكتب بلغات أجنبية، لا يصح المقارنة بينهم، لأنهم ينتمون إلى فضاء سياسي وجغرافي واحد، وهو العالم العربي الذي يعتبر بمثابة أمة واحدة، مهما بعدت حدودهم أو اختلفت مذاهبهم العقائدية أو لغاتهم أو قومياتهم. في حين يمكن المقارنة بين عربي مهما كانت اللغة التي يكتب بها وبين أديب فارسي أو تركي حتى وإن كتب هؤلاء الأعاجم باللغة العربية، لأنهم لا ينتمون إلى العالم العربي. لذا، يصعب علينا تصور مدرسة إسلامية في الأدب المقارن، لأن الأدب الإسلامي المقارن شيء والاتجاه الإسلامي في الأدب المقارن شيء آخر.

والتأثر عند العرب ليس عيباً، ما لم يكن تقليداً، بل يدل على كثرة المطالعة ورغبة في الإفادة من آداب الآخر حسب ذوق واختيار المتلقي، فالباحث العربي لا يتحرج إذا ما أثبت تأثر أديب عربي بأديب أجنبي، بل يحاول دراسة دواعي التأثير ودرجة الاختلاف والتشابه وأسبابها. والأدب المتأثر لا يعني أدباً ضعيفاً، بل حتى الأدب الراقى يتأثر بأدب أدنى منه، كالحكايات وما يتصل بالأدب الغرائبي والعجائبي. وبإمكان الباحث المقارن ترجيح أدب على آخر أو تفضيل بلاغة على أخرى، ولكن ليس على خلفية مسبقة، كما كان الحال عند المدرسة التاريخية التقليدية، وإنما بناء على أسس منهجية وعلمية، وذلك من أجل الكشف عن محاسن وعيوب الأدبين وتعليلها، وليس بغرض إظهار تفوق أدب على أدب آخر أو التعصب.